

الإمام أبو عبد الله التَّنَسِّي (ت:899هـ) وجهوده في التفسير

Imam Abu Abdullah Al-Tansi (d.: 899 AH) and his efforts in interpretation

د.بن زيان خالد*

جامعة حسيبة بن بوعلي – شلف-(الجزائر) Salah78982@yahoo.com

تاريخ الارسال 2020-05-07 تاريخ القبول 2022-05-08 تاريخ النشر 2022-12-28

ملخص:

يتضمن هذا البحث ترجمة مختصرة لعالم من أعلام التفسير في الجزائر وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس التَّنَسِّي (ت:899هـ)، وجهوده في التفسير من خلال الآية: 32 من سورة فاطر، ودراسة لبعض ملامح منهجه في التفسير من خلال هذا المثال. الكلمات المفتاحية: أبو عبد الله التنسي – جهود – التفسير – المنهج – الملامح.

Abstract :

This article includes an account on the character of ABOU ABDELLAH MOHAMED IBN IDRIS ETENESSI, one of the famous interpreter of the Qur'an in Algeria. This study shows a part of this efforts in teaching interpretation and lightens his methodology through the example of verse 32 from chapter 35 (Surah Fatir)

Key Words : ABOU ABDELLAH ETENESSI- efforts – interpretation – methodology – features.

مقدمة:

إن المتصفح لتاريخ الجزائر ينبهر لما تركه الأجداد من صفحات مشرقة، لشخصيات عظيمة وعديدة، لها وزنها بمقياس التدرج التاريخي، لتلك العهود السابقة، في ميدان التفسير، ولكنها للأسف هي مغمورة، وغير مشهورة، ولذا وجب علينا أن نقدمها لجيلنا، والأجيال القادمة، وأن نزيح عنها تراب الإهمال والنسيان، ولعل هذا البحث المتواضع لبنة من لبنات التعريف والتذكير والتنويه والإشادة بأعلام التفسير في الجزائر، وعلى مفاخر أعمالهم ومن هؤلاء الإمام التَّنَسِّي.

الإمام محمد أبو عبد الله التنسي التلمساني، من علماء تلمسان في القرن التاسع الهجري، ولد بها، ترجم له ابن مخلوف (ت: 1360هـ) بالقول: من أكابر علمائها، الإمام الجليل الفقيه المطلع بقية الحفاظ الأديب العالم المتفنن¹.

وقال عنه التنبكي (ت: 1036هـ): "الفقيه الجليل الحافظ الأديب المطلع، من أكابر علمائها الجلة"². ووصفه أحمد بن محمد بن القاضي (ت: 1025هـ): "بأنه كان فقيها جليلا حافظا أديبا، من أكابر علماء تلمسان"³.

* المؤلف المرسل

وأثنى عليه عصرية الإمام محمد بن يوسف بن عمر السنوسي التلمساني (ت: 895هـ) المفسر غاية الثناء بعد فتواه "نازلة يهود توات من قصور صحراء المغرب الأوسط" فقال: "الشيخ الإمام القدوة علم الأعلام الحافظ المحقق أبو عبد الله التنسي جزاه الله خيرا..."⁴

أما نسبة التنسي فأصل والده من التنس مدينة من مدن شلف، أخذ عن والده عبد الله بن عبد الجليل التنسي الذي حفظ على يديه القرآن الكريم وأخذ عنه علوم العربية وآدابها والحديث الشريف، ثم إنتقل إلى حاضرة تلمسان فتلمذ على يد أئمة الحاضرة كأبي الفضل بن مرزوق (ت: 842هـ) المفسر، وقام العقباني (ت: 811هـ) والمفسر ابن الإمام محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن الإمام (ت: 845 هـ) والإمام أبو عبد الله محمد النجار المفسر (ت: 846 هـ) ، وأبو إسحاق إبراهيم التازي (ت: 866هـ) نزيل وهران، والإمام الشهير بإبن العباس (ت، 871 هـ) ، وإبن زاغو (ت: 845هـ) وغيرهم.

وتلمذ على يديه من أعلام الحواضر كابن سعد (ت: 901هـ) وإبن مرزوق السبط (ت: 842هـ) وأبو العباس الصغير الذي لازمه وإنفجع به، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي القاسم الزواوي (ت: 853) و أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بإبن جلال التلمساني (ت: 981) ومحمد بن العباس بن محمد عيسى العبادي (ت: 871)، وغيرهم، لما خرج أبو العباس الصغير من تلمسان سئل عن علمائها فقال: "العلم مع التنسي والصلاح مع السنوسي والرياسة مع ابن زكري"⁵.

توفي الإمام أبو عبد الله التنسي بتلمسان ودفن بها سنة 899هـ.

أولاً: جهود أبي عبد الله التنسي في التفسير:

يصنف رحمه من أعلام التفسير في الجزائر وإن لم يترك تصنيفاً في التفسير، ولكن نقل عنه عنايته بتدريس التفسير، فقد كان له مجلس يدرس فيه التفسير. حكى عنه تلميذه أبو عبد الله بن أبي العباس الصغير بالقول: "لازمت مجلس الشيخ الفقيه العالم الشهير سيدي التنسي عشرة أعوام، وجضرت لإقراءه تفسيراً وحديثاً..."⁶ وذكر تلميذه أبو جعفر الوادي آشي (ت: 938 هـ) حلقاته ودروسه التفسيرية قائلاً: "سمعت على شيخنا جملة وافرة من تفسير كتاب الله العزيز . من سورة الأعراف -فاتني منها أقلها - بما يجب لذلك من التحقيق والتحريز مما ذكره المفسرون، وما لم يذكر صاحب تفسير، بل من نتائج فكره المصيب، ومتلقياته عن مشايخه الأعلام الذين ورث مقاماتهم بالفرض والتعصب".⁷

وهذين النصين يثبتان نسبة الإمام أبي عبد الله التنسي إلى التفسير، فإن هذه النسبة تثبت إما بالتأليف أو التدريس.

فلم يصلنا إلا مؤلفه "الطَّرَاز في رسم الحَزَّار" في علوم القرآن، وهو من المؤلفات في فن الضبط.⁸ شرح به منظومة "مورد الضمآن في رسم أحرف القرآن" لأبي عبد الله الشريشي الشهير بالحَزَّاز (ت: 718 هـ)، وهي أرجوزة في ضبط رسم القرآن الكريم.⁹

وكل قارئ للقرآن الكريم في المصحف في طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، يجد في آخره مكتوب: "وأخذت طريقة ضبطه مما قرره علماء الضبط على ما حسب ما ورد في كتاب: "الطراز على ضبط الخراز" للإمام التتسي رحمه الله وجعل ما قدم في ميزان حسناته يوم القيامة. قال عليه الصلاة والسلام: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له".

ثانيا: نموذج من تفسير الإمام التتسي

وهذا المثال التفسيري الذي وصل إلينا من طريق أحمد بن يحيى الونشريسي (ت: 914 هـ) في كتابه "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب"، هو جواب عن سؤال حول تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر "32) وقد كتب الإجابة بيده، فأجاب بما يلي:

"الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم: الذي عليه جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن هذه الآية الكريمة لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأقسامها الثلاثة. وأن المراد بالكتاب فيها هو القرآن الكريم، إذا ما من أحد من هذه الأمة، إلا وهو مصدق بالقرآن وأخذ منه بنصيب، حفظا وفهما وعملا ولو لم يكن إلا القدر الذي يصلي به، إذ ما من أحد من هذه الأمور لا يخلو من حفظ ذاك المقدار، وإن لم يحافظ عليها فهو إذ لم يحافظ عليها وعلى غيرها من سائر التكليف ظالم لنفسه، من أجل أنه وضعها في غير موضعها الحقيقي الذي خلقت له، لكن إسم الإرث حاصل له، إذ ما من حرف يقرأ مما حفظ من القرآن ولو يكن إلا سورة الحمد لله له به عشر حسنات، والله يضاعف لمن يشاء. كما أن وصف الإصطفاء باق عليه حيث لم يخرج عن دائرة الأمة فهو من جملة من إصطفاهم الله، أي إختارهم من سائر الأمم حيث قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾¹⁰ وظلم النفس لا ينافي بالإصطفاء، فقد قال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾¹¹ فإذا ثبت كون الظالم لنفسه وارثا للكتاب، متصفا بالإصطفاء، كان ذلك في المقتصد أظهر، إذ هو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا، وأما السابق فلا إشكال في أنه سابق إذا حفظه الله من التلبس بشيء مما يؤثر في درجة السبقية.

فالأصناف الثلاثة داخلية في وراثة الكتاب وفي الإتصاف بالإصطفاء وإن كانت منازلهم متفاوتة، ولذلك وصفهم الله عز وجل بالفضل وجمعهم في دخول الجنة والتنعيم فيها وبالثناء عليه بما أولاهم من إذ هاب الحزن عنهم بإنعدام موجبة وإنكشافه، وبإعترافه، بما من عليهم من عظيم غفرانه للفريقين الأولين، وعظيم شكره بجزيل الثواب للفريق الثالث، حسبما دلت عليه صيغة المبالغة في الوصفين الكريمين، فمن تأمل الآية الكريمة من أولها إلى آخرها وفق على صحة ما قلناه، وموافقته إلى ما أشار إليه صاحب الكلام المتقدم في كتابه. ويؤيد ذلك كله ما رواه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "سابقنا سابق، ومقتصدنا لاحق، وظالمنا مغفور له"¹²، فأنت ترى ما في هذا الكلام النبوي من إضافة الأقسام الثلاثة إلى ضمير الأمة المحمدية شرفها الله،

فهم كلهم داخلون فيما وصفت به من الإصطفاء، حيث كانت خير أمة أخرجت للناس، ويزيد ذلك بيانا وإيضاحا ما ذكره أبو الخليل عن كعب الأحبار -رضي الله عنه- أنه قال: "تلوموني أحبار بني إسرائيل على أن دخلت في أمة فرقهم الله أولا ثم جمعهم فأدخلهم الجنة جميعا، ثم تلى هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (32) جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33)﴾ (فاطر 32-33).

وقد جاء عن كعب الأحبار ما يدل على فضل الأمة المحمدية آثار مذكورة في الحلية وغيرها، أقرها مطابقة لما نحن نتكلم فيه، منها ما روي أنه رأى حبرا يهوديا يبكي: فقال له ما يبكيك. فقال: ذكرت بعض الأمر، فقال كعب: أنشدتك الله تعالى لئن أخبرتك بما أبكاك لتصدقني، قال: نعم. قال: أنشدتك الله هل تجد في الكتاب المنزل على موسى -عليه السلام- نظر في التوراة، فقال: إني أجد في التوراة أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والكتاب الآخر، ويقاتلون أهل الضلالة، حتى يقاتلوا الأعور الدجال، فقال موسى، رب اجعلهم أمتي، فقال: هم أمة أحمد يا موسى؟ قال الحبر: نعم، قال: فأنشدتك الله هل تجد في الكتاب المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: رب أجد أمة هم الحامدون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمرا قالوا نفعله إن شاء الله فاجعلهم أمتي. قال: هم أمة أحمد. قال الحبر: نعم. قال كعب: فأنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: رب إني أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم، وكان الأول يحرقون صدقاتهم بالنار، غير أن موسى كان يجمع صدقات بني إسرائيل، فلا يجد عبدا مملوكا ولا أمة إلا اشتراه ثم أعتقه، وما فضل حفر بيرا عميقة القعر فألقاه فيها ثم دفنه كي لا يرجعوا فيها وهم: المسيحيون، والمسيحيات والشافعون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي، قال: هم أمة أحمد يا موسى؟.

قال الحبر: نعم. قال كعب: فأنشدتك الله، هل تجد في الكتاب المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: رب إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر، وإذا هبط واديا حمد الله تعالى: الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد، حيث ما كانوا يتطهرون من الجنابة، طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء، حيث لا يجدون الماء، غُرَّ محجلون من آثار الوضوء، فاجعلهم أمتي، فاجعلهم أمتي، قال: هم أمة أحمد يا موسى؟ قال الحبر: نعم. قال كعب: فأنشدتك الله هل تجد في الكتاب المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: رب إني أجد أمة إذا همَّ أحدهم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإذا عملها ضعفت له إلى عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف وإذا همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، فإذا عملها كتبت سيئة مثلها، فاجعلهم أمتي، قال: هم أمة أحمد يا موسى؟

قال الحبر: نعم. قال كعب: فأنشدك الله هل تجد في الكتاب المنزل أن موسى عليه السلام نظر في التوراة فقال: رب إني أجد أمة مرحومة ضعفاء، يوتون الكتاب واصطفيتهم، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات، فلا أجد أحدا منهم إلا مرحوما فاجعلهم أمتي، قال: هم أمة أحمد يا موسى؟ قال الحبر: نعم.

قال كعب: فأنشدك الله هل تجد في الكتاب المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: رب إني أجد في التوراة أمة مصاحفهم في صدورهم، يلبسون ثياب أهل الجنة، يصفون في صلاتهم كصفوف الملائكة، أصواتهم في مساجدهم كدوي النحل، لا يدخل النار منهم أحد إلى من برئ من الحسنات كما برئ الحجر من ورق الشجر، فاجعلهم أمي، قال: هم أمة أحمد يا موسى؟ قال الخبر: نعم: فلما عجب موسى من الخير الذي أعطى الله محمدا وأمته، قال يا ليتني من أصحاب محمد، فأوحى الله تعالى إليه ثلاث آيات يرضيه بهن: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾¹³ إلى قوله ﴿سَأَرْيَكُم دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾¹⁴ وقال: ﴿وَمِن قَوْم مُوسَى أُمَّة يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾¹⁵ قال: فرض موسى كل الرضى، إنتهى.

فقوله في السؤال السادس: إني أجد أمة مرحومة ضعفاء يوتون الكتاب واصطفيتهم ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾¹⁶، فلا أجد أحدا منهم إلا مرحوما مطابق لما فيه من الكلام وهو نص صريح في أن هذه الأمة المحمدية مذكورة في التوراة بأنواع من الفضل، منها أنهم الذين ورثوا الكتاب، وإن الله اصطفاهم على ما هم عليه من الأقسام الثلاثة التي هي الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات فقد اتفق ما في التوراة وما في القرآن على أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة أنهم الذين أوتوا الكتاب وورثوه، واصطفاهم الله غيرهم، فهنيئا لهم بما خصهم الله به من الكرامات، فليلتقوا ذلك بالشكر بالقلب واللسان والجوارح. جعلنا الله من المسارعين إلى القيام بأداء حقه في ذلك... قاله وكتبه محمد بن عبد الله التنسي¹⁷.

ثالثا: ملامح منهج التفسير عند الإمام التَّنَسِّي:

بداية لا بد أن نشير أنه يصعب علينا أن نقف على منهج الإمام أبي عبد الله التَّنَسِّي (ت: 899هـ) في التفسير. أولا: لإعتبار أنه لم يترك مؤلفا تفسيريا للقرآن الكريم. ثانيا: أنه إشتغل بتدريس التفسير لا بتأليفه وهذا المسلك كان غالبا على المغاربة ومنهم الجزائريون وهو عنايتهم بالتدريس.

كما تقل عن علامة الجزائر عبد الحميد ابن باديس: "قال شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب". ثالثا: النص الذي بين أيدينا هو إجابة عن فتوى تفسيرية ومعلوم أن التأليف له غرض ومقصد، فلو ألف التَّنَسِّي كتابا في التفسير لكان له منهج خاص قد يذكره في مقدمته أو يستنبط من ثنايا الكتاب. رابعا: سأحاول من خلال هذا النص أن أقف على بعض ملامح منهج التَّنَسِّي في التفسير. أن هذه الملامح نأخذها من قوله في مطلع الفتوى: "الذي عليه جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم"، أنه يفسر القرآن بالقرآن، وبالسنة وباللغة العربية وبأقوال الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. وكذلك يعول في مسائل الخلاف التفسيرية على قول جمهور المفسرين.

أ- تفسير القرآن بالقرآن: فقد ذكر في معرض تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ (فاطر: 32)، لما تكلم عن إصطفاء الله لهذه الأمة إستدل بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: 110) وكذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ (الأعراف: 23) لبيان أن الظلم لا ينافي الإصطفاء.

ب- تفسير القرآن بالسنة: فقد إستدل لتفسير الآية بما رواه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "سابقنا سابق، ومقتصدنا لاحق، وظالمنا مغفور له" فقد إستشهد بهذا الحديث دون بيان درجته.

فقد إستدل بهذا الحديث لبيان فضل هذه الأمة وشرفها وأن الأصناف الثلاثة كلهم داخلون تحت الإصطفاء الوارد في الآية.

ج- قد يستشكل القارئ للنص إستدلال الإمام التَّنَسِّي بأثر كعب الأحبار (ت: 32هـ)¹⁸ الطويل لبيان شرف ومكانة هذه الأمة، وهو من الإسرائيليات وأثر كعب الأحبار ذكره بهذا اللفظ كاملاً الإمام ابن قيم الجوزية (ت: 751هـ) حيث قال: "وفي التفقيتات"¹⁹ حدثنا قتيبة بن سعيد، عن سعيد بن عبد الرحمن المعافري، عن أبيه أن كعباً....²⁰ ثم ساق الأثر الذي استدل به الإمام التنسي.

ثم قال بعده: "وهذه الفصول بعضها في التوراة التي بأيديهم وبعضها في نبوة أشعياء وبعضها في نبوة غيره. و"التوراة" أعم من التوراة المعينة، وقد كان الله سبحانه كتب لموسى ﴿فِي الْأَلْوَاكِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾²¹.

فأما كسرهما رفع منها الكثير وبقي خير كثير، فلا يقدح في هذا النقل جهل أكثر أهل الكتاب به....²² ولذا لا بد أن يعلم أن الصحابة رضوان الله عليهم رجعوا إلى مرويات أهل الكتاب، ورووها في التفسير، ولا يلزم من ذكرهم لهذه المرويات قبولهم لها.

ومن أمثلة ذلك سؤال ابن عباس (ت: 68هـ) لأبي الجلد²³، فقد روي الطبري بسنده عن الحسن بن الفرات عن أبيه قال: كتب ابن عباس إلى أبي الجلد يسأله عن الرعد، فقال الرعد الريح.²⁴

وروى الطبري عن عثمان بن حاصر قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: قرأ معاوية هذه الآية فقال: ﴿عَيْنَ حَامِيَةٍ﴾ فقال ابن عباس: إنها: ﴿عَيْنَ حَمِيَّةٍ﴾ قال: فجعلنا كعباً بينهما: فقال: أرسلنا إلى كعب الأحبار، فسألاه فقال كعب: أما الشمس فإنها تغيب في ثأط، فكانت على ما قال ابن عباس، والثأط: الطين.²⁵

وهنا نقف وقفه مع منهج الصحابة في التعامل مع الإسرائيليات:

أولاً: أنهم لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء:

- فلم يرد سؤالهم عن شيء مما يتعلق بالعقيدة، أو يتصل بالأحكام، إلا إذا كان على جهة الإستشهاد لما جاء به القرآن.

- كان سؤالهم لهم مقتصر على أشياء لا تعدوا أن تكون توضيحاً للقصة وبياناً لما أجمله القرآن منها.

- لا يجاوزون ما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سؤال أهل الكتاب، لأنه إذا ثبت الشيء عن الرسول صلى الله عليه وسلم فليس لهم أن يعدلوا عنه إلى غيره.

- لا يسألون عن الأشياء التي يشبه أن يكون السؤال عنها من اللهو والعبث، كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف، والبعض الذي ضرب به القتل من البقرة، ومقدار سفينة نوح...
ثانياً: إذا سألوهم لم يقبلوا منهم كل شيء.

- فإذا كان جوابهم يحتمل الصدق والكذب، فإن الصحابة رضي الله عنهم يتوقفون فيه، ولا يحكمون عليه بصدق أو بكذب، لقوله صلى الله عليه وسلم "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".²⁶ ولقوله عليه السلام: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم".²⁷

- أما إذا كان جوابهم فيه مخالفة، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا لا يصدقونهم، بل كانوا يردون عليهم خطأهم، ويبينون لهم وجه الصواب فيه.

فرواية الصحابة للإسرائيليات لم يخرج عن دائرة الجواز التي حددها لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ملتزمون بضوابط الأخذ عنهم، والتوقف فيما لم يرد النص الشرعي برده.

ولذا لم يخرج الإمام التَّنَسِّي في تفسيره لهذه الآية عن مسلك الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وجمهور المفسرين، فإستشهاده بأثر كعب الأحبار من باب توسعة التوضيح والبيان لفضل هذه الأمة وإصطفاءها.

د- يظهر في تفسير هذه الآية ملمح لطيف في الفرق بين التدريس والتأليف، فالمدرس غرضه إفهام المتلقى بأوجز عبارة، فقد لخص الإمام التَّنَسِّي المعنى الإجمالي للآية، وبيان المراد من الإصطفاء، ومصير الأصناف الثلاثة، وفضل وشرف هذه الأمة بدون ذكر الخلاف، ولا إيراد للمباحث اللغوية في معنى الميراث، والإصطفاء، وتجاوز أقوال المفسرين في الأصناف الثلاثة، كما جرت عليه عادة المصنفين في التفسير. وتأمل الفرق بين تفسير التَّنَسِّي (ت: 899 هـ) والإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت: 676 هـ) حيث يقول في تفسير هذه الآية: "هذه الآية مشككة، لأنه قال جل وعز: ﴿اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وقد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم"²⁸ ثم ساق رحمه الله الأقوال.

فالقارئ للتَّنَسِّي يجد سهولة في العبارة ووضوحاً للمعنى مع تجريد تام للتفسير من مباحث الخلاف، واللغة والإشتقاق وغيرها من المباحث التي يعنى بها المفسرون عموماً.

وهنا يظهر الفرق بين مقام التدريس والتأليف فكل غرض له منهجه وطرائقه.

وقد أورد الونشريسي (ت: 914 هـ) في معياره جواباً طويلاً لتفسير هذه الآية لعلماء الحاضرة التلمسانية الأربع: الإمام السنوسي والإمام التَّنَسِّي والإمام ابن زكري والإمام ابن أبي العيش فينظر في أقوالهم و حتى يتضح منهج الإمام التَّنَسِّي ويقارن بمنهج غير من مفسري القرن التاسع الهجري.

وقد إنتصر الإمام الرضا محمد بن قاسم الأنصاري التلمساني (ت: 894 هـ) لجواب الإمام التَّنْسِيّ واستملحه واستلطفه، وأثنى عليه كثيرا وعلى علمه.²⁹

فأسلوبه أقرب إلى ما يسمى اليوم بالتفسير الموضوعي ولعل هذا الأسلوب ويسر العبارة مرده أن الإمام التَّنْسِيّ كان في مقام الجواب عن فتيا.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث نخلص إلى جملة من النتائج أهمها:

1- أن الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس التَّنْسِيّ التلمساني (ت: 899 هـ) علم من أعلام التفسير وعلوم القرآن في الجزائر.

2- لم يصنف الإمام التَّنْسِيّ في التفسير، ولم يصلنا من تفسيره إلا الفتوى التفسيرية التي ذكرها أحمد بن يحيى الونشريسي في "المعيار" في تفسير الآية: 32 من سورة فاطر.

3- أن منهج الإمام التَّنْسِيّ في التفسير هو منهج جمهور المفسرين: فقد فسر القرآن بالقرآن، وفسر القرآن بحديث النبي صلى الله عليه وسلم.

4- لغة الإمام التَّنْسِيّ لغة سهلة، واضحة بعيدة عن التعقيد واتسم تفسيره ببيان المعنى الإجمالي للآية دون الغوص في القضايا التي ما عادة يذكرها المفسرون.

5- رجع إلى الإسرائيليات بذكره لأثر كعب الأحبار الطويل لبيان فضل الأمة وإصطفائها ولعل ذكره بطوله ليعين ويرد على اليهود تكذيبهم لحقيقة ما في التوراة، والإمام التَّنْسِيّ قد خبر القوم جيدا ولا أدل على ذلك من فتواه المعروفة بـ "نازلة يهود توات من قصور صحراء المغرب الأوسط".

6- إن للجزائر وعلمائها بصمة وظهور في التفسير وعلومه تأليفا وتدريسا، قد ترتقي إلى كونها "مدرسة" ذات ملامح وأسس وقواعد ومنهج تفسيري في التعامل مع القرآن الكريم.

وفي الأخير أقول ينبغي عناية الباحثين والطلبة لخدمة تراثنا الدفين، وجمعه وطباعته، وتمحيصه وتنقيحه.

قائمة المصادر والمراجع:

1- البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، ابن مريم التلمساني، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2014.

2- ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، تحقيق: عبد الله العمراني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1403 هـ.

3- درة الحجال في أسماء الرجال، أحمد ابن القاضي، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، دار التراث، القاهرة، مصر، ط1، 1971م.

- 4- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ابن سالم مخلوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2003.
- 5- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أحمد بن يحيى الونشريسي، تحقيق، محمد حجي وجماعة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- 6- نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكي، كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط1، 1989م.
- 7- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، ط1، 1425هـ / 2004م.
- 8- جامع البيان عن تأويل القرآن، لأبي جعفر بن جرير الطبري، شركة الباجي الحلبي، ط3.
- 9- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، شمس الدين بن قيم الجوزية، دار ابن الهيثم، القاهرة، مصر.

- ¹ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ابن سالم مخلوف، 685/1.
- ² نيل الإبتهاج، أحمد بابا التنبكي، 572/1.
- ³ درة الحجال في أسماء الرجال أحمد بن محمد بن القاضي، تح: محمد الأحمد أبو النور، دار التراث القاهرة، مصر، ط1، 1971، 143/2.
- ⁴ نيل الإبتهاج، أحمد بابا التنبكي، 573/1.
- ⁵ نيل الإبتهاج، أحمد بابا التنبكي، 573/1.
- ⁶ البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، ابن مريم التلمساني، ص431.
- ⁷ ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، ص319.
- ⁸ ضبط القرآن علم يعرف به ما يدل على عوارض الحرف، التي هي الفتح والضم والسكون والكسر والشدة والمد ونحو ذلك، ويرادف الضبط "الشكل".
- ⁹ أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته 1631/3.
- ¹⁰ آل عمران، الآية 110.
- ¹¹ الأعراف، الآية 23.
- ¹² أخرجه البيهقي في "البعث" (65) عن ميمون بن سياه عن عمر مرفوعاً وقال: فيه إرسال بين ميمون وعمر. وأخرجه العقيلي 1491 من وجه آخر وأعله بالفضل بن عميرة لكن قال: روي بإسناد أصلح من هذا. ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (3678).
- ¹³ الأعراف، الآية 144.
- ¹⁴ الأعراف، الآية 145.
- ¹⁵ الأعراف، الآية 159.
- ¹⁶ فاطر، الآية 32.

- ¹⁷ المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أحمد بن يحيى، الونشريسي، 369/11.
- ¹⁸ كعب بن ماتع بن هيسوع الحميري، وكنيته إسحاق، أصله من يهود اليمن قيل: إنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم، والراجح أن إسلامه كان في خلافة عمر رضي الله عنه، فهو من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، يقال له: كعب الأحبار، وكعب الحبر، نظرا لثراء معلومات، فقد كان واسع الإطلاع على كتب اليهود، ولذلك كان ممن إشتهر براوية الإسرائيليات توفي في حمص سنة إثنين وثلاثين، في خلافة عثمان رضي الله عنه، وقد بلغ مائة وأربعين سنة، وقد إتفقت كلمة نقاد الحديث على توثيق كعب وقد أخرج له الشيخان في الصحيح، وباقي أصحاب الكتب السنة.
- ينظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف المزني (ت:742 هـ)، تحقيق بشار عواد، ط1، 1423 هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 132/3.
- ¹⁹ الثقفيات أو الفوائد العوالي المنتقاة من أصول سماعات الرئيس أبي عبد الله القاسم بن الفضل الثقفي الأصفهاني (ت:489 هـ) رواية زاوية الحافظ الطاهر أحمد بن إبراهيم السلفي (ت:576). وهي مخطوطة، وأصل هذه النسخة في تشستر بيتي، رقم 3492 (1-28) وعنهما صورة في جامعة الإمام، رقم 3492/ف (1-28)، وللكتاب نسخ أخرى في الظاهرية، عدد الأوراق 29 ورقة.
- ²⁰ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، شمس الدين بن قيم الجوزية، دار ابن الهيثم، القاهرة، مصر، ص211.
- ²¹ الأعراف الآية 145.
- ²² هداية الحيارى، ابن قيم الجوزية، ص:212-213.
- ²³ أبو الجلد: هعو جيلات بن أبي فروة، صاحب كتب التوراة، ونحوها، وثقة أحمد ولبن سعد، ولابن عباس أسئلة وجهها إليه غير هذه، رواه الطبري في مواضع من تفسيره.
- ²⁴ تفسير الطبري، 151/1.
- ²⁵ المرجع نفسه، 11/16، وينظر مثال آخر في رجوع ابن عباس وعمرو بن العاص إلى كعب في معنى (حمئة وحاصية).
- ²⁶ أخرجه البخاري برقم: 3461.
- ²⁷ أخرجه البخاري برقم: 7362.
- ²⁸ الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، 523/14.
- ²⁹ المعيار المعرب، أحمد بن يحيى الونشريسي، 374-369/11.